الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

قال الناظم أبو إسحاق الإلبيري رحمه الله تعالىٰ في منظومته في الحث علىٰ طلب العلم، والتحلي بالأخلاق الفاضلة:

لَقَدْ صَاحَبْتَ أَعْلاَمًا كِبَاراً ... وَلَمْ أَرَكَ اقْتَدَيْتَ بِمَنْ صَحِبْتَا

وَنَادَاكَ "الْكِتَابُ" فَلَمْ تُجِبْهُ ... وَنَبَّهَكَ الْمَشِيبُ فَمَا انتَبَهْتَا

وَيَقْبُحُ بِالْفَتَىٰ فِعْلُ التَّصَابِي ... وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّىٰ

وَنَفْسَكَ ذُمَّ لاَ تَذْمُمْ سِوَاهَا ... لِعَيْبٍ فَهْيَ أَجْدَرُ مَنْ ذَمَمْتَا

وَأَنْتَ أَحَقُّ بِالتَّفْنِيدِ مِنِّي ... وَلَوْ كُنْتَ اللَّبِيبَ لَمَا نَطَقْتَا

وَلَوْ بَكَتِ الدِّمَا عَيْنَاكَ خَوْفًا ... لِذَنْبِكَ لَمْ أَقُلْ لَكَ قَدْ أَمِنْتَا

وَمَنْ لَكَ بِالأَمَانِ وَأَنْتَ عَبْدٌ ... أُمِرْتَ فَمَا ائْتَمَرْتَ وَلاَ أَطَعْتَا

ثَقُلْتَ مِنَ الذُّنُوبِ وَلَسْتَ تَخْشَىٰ ... لِجَهْلِكَ أَنْ تَخِفَّ إِذَا وُزِنْتَا

وَتُشْفِقُ لِلْمُصِرِّ عَلَىٰ المَعَاصِي ... وَتَرْحَمُهُ وَنَفْسَكَ مَا رَحِمْتَا

رَجَعْتَ الْقَهْقَرَىٰ وَخَبَطْتَ عَشْوَا ... لَعَمْرُكَ لَوْ وَصَلْتَ لما رَجَعْتَا

وَلَوْ وَافَيْتَ رَبَّكَ دُونَ ذَنْبٍ ... وَنُوقِشْتَ الْحِسَابَ إِذاً هَلَكْتَا

وَلَمْ يَظْلِمْكَ فِي عَمَلٍ وَلٰكِنْ ... عَسِيرٌ أَنْ تَقُومَ بِمَا حَمَلْتَا

وَلَوْ قَدْ جِئْتَ يَوْمَ الْحَشْرِ فَرْداً ... وَأَبْصَرْتَ الْمَنَازِلَ فِيهِ شَتَّىٰ

لأَعْظَمْتَ النَّدَامَةَ فِيهِ لَهْفًا   عَلَىٰ مَا فِي حَيَاتِكَ قَدْ أَضَعْتَا

تَفِرُّ مِنَ الْهَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ   فَهَلاَّ مِنْ جَهَنَّمَ قَدْ فَرَرْتَا

وَلَسْتَ تُطِيقُ أَهْوَنَهَا عَذَابًا   وَلَوْ كُنْتَ الْحَدِيدَ بِهَا لَذُبْتَا

وَلاَ تُنْكِرْ فَإِنَّ الأَمْرَ جِدٌّ   وَلَيْسَ كَمَا حَسِبْتَ وَلاَ ظَنَنْتَا

هذه الأبيات هي تتمة لعود الناظم رحمه الله تعالىٰ علىٰ نفسه بالعتب واللوم؛ حيث بدأ ذلك من قوله فيما سبق:

وَقُلْ: يَا نَاصِحِي بَلْ أَنْتَ أَوْلَىٰ   بِنُصْحِكَ لَوْ لِفِعْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا

فمن هذا البيت عاد باللوم علىٰ نفسه تذكيراً لها وتنبيهاً لحاجتها إلىٰ ذلك؛ حيث مرَّ معنا قوله:

تُقَطِّعُنِي عَلَىٰ التَّفْرِيطِ لَوْمًا   وَبِالتَّفْرِيطِ دَهْرَكَ قَدْ قَطَعْتَا

فمن من هنا بدأ أو عاد باللوم والعتْب علىٰ نفسه رحمه الله تعالىٰ، وتذكيرها بالحاجة الشديدة إلىٰ المحاسبة، محاسبة النفس ولومها علىٰ تقصيرها وتفريطها.

والمحاسبة هي من يقظة القلب وانتباهه ولا يُوَفَّق لها إلا الموَفَّق؛ لأن المحاسبة هي بوابة الندم والإنابة، وصلاح الحال والاستقامة علىٰ الطاعة.

وكلما كان المرء أشد محاسبة لنفسه ووزناً لأعماله كان ذلك أتمّ في استقامته.

والمؤمنون الكُمَّل جمع الله لهم بين إحسان في العمل وشفقة من التفريط بحيث لا يزال يرىٰ نفسه مُقَصِّراً مُفَرِّطاً كما قال الله جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون] أي: خائفة ألا يُتقَبَّل منهم عملهم.

وفي هذا المعنىٰ يقول الحسن البصري رحمه الله: إن المؤمن جمع بين إحسان ومخافة، والمنافق جمع بين إساءة وأمن.

شاهد القول: أن الناظم رحمه الله تعالىٰ دخل مُدخلاً جميلاً وعظيماً يلوم نفسه ويعاتبها وينبهها بأحقيتها بالعتب واللوم، ويذكرها بما قد يكون في ثمة من تفريط أو تقصير، فيقول وهو ماضٍ في ذلك:

لَقَدْ صَحِبْتَ أَعْلاَمًا كِبَاراً وَلَمْ أَرَكَ اقْتَدَيْتَ بِمَنْ صَحِبْتَا

يعني كأنه يقول علىٰ لسان مَنْ كان يعاتبه في نظمه أنه عاد بالعتب علىٰ الناظم أبي إسحاق نفسه، فكأنه يقول له: لقد صاحبت أعلامًا كباراً، أي: تيسر لك صُحبة أعلام كبار، لزمتهم، وجالستهم، وحضرت مجالسهم.

لَقَدْ صَحِبْتَ أَعْلاَمًا كِبَاراً وَلَمْ أَرَكَ اقْتَدَيْتَ بِمَنْ صَحِبْتَا

يعني لم أرك قد تأثرت بتلك المجالسة وتلك الصُّحبة لأولئك الأعلام الكبار.

والمظنون به رحمه الله أنه استفاد من الصُّحبة، لكن هذا من كمال اللوم والمحاسبة للنفس شأن الصالح الحريص علىٰ كمال نفسه العائد عليها بالعتْب واللوم مهما كانت أعماله، ومهما كانت عبادته.

لَقَدْ صَحِبْتَ أَعْلاَمًا كِبَاراً وَلَمْ أَرَكَ اقْتَدَيْتَ بِمَنْ صَحِبْتَا

وَنَادَاكَ "الْكِتَابُ" فَلَمْ تُجِبْهُ وَنَبَّهَكَ الْمَشِيبُ فَمَا انتَبَهْتَا

أتاك موقظتان عظيمتان وما أراك انتبهت واستيقظت؛

الأولىٰ: الكتاب، كتاب الله ﷻ وما فيه من آيات النُّذُر والتخويف والتهديد والتذكير.

والأمر الثاني: المشيب، والمشيب في حد ذاته نذير لصاحبه، وقد قيل في بعض أقوال المفسرين: إنه المراد بقوله جل وعلا: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۚ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر] بعض المفسرين قالوا: أي الشيب لأن الشيب نذير لصاحبه، ومؤذن ومعلن بدنو الأجل.

وفي الحديث: «أعذر الله إلىٰ رجل من أمتي بلغ الستين».

فيقول: جاءك الكتاب واعظًا من جهة، وجاءك الشيب نذيراً لك وما انتبهت (فَمَا انتَبَهْتَا).

وَيَقْبُحُ بِالْفَتَىٰ فِعْلُ التَّصَابِي وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّىٰ

(وَيَقْبُحُ بِالْفَتَىٰ فِعْلُ التَّصَابِي) هذا يقوله علىٰ لسان مَنْ كان يعاتبه، لأنه فيما سبق قال لذلك الشاب (وَلاَ تَقُلِ الصِّبَا فِيهِ امْتِهَالٌ) فعاد علىٰ لسان ذلك الشاب- وواضح من هذا أن المعاتب بهذا النظم شاب، ليس من أقران أبي إسحاق- كما كنت أظن في أول كلامي علىٰ شرح هذه المنظومة- وإنما هو شاب فتىٰ كما واضح من الأبيات التي مرّت ولاسيما قوله: (وَلاَ تَقُلِ الصِّبَا فِيهِ امْتِهَالٌ).

فجاء أبو إسحاق وعلىٰ لسان ذلك الشاب، ويعيد العتب علىٰ نفسه ويقول: (وَيَقْبُحُ بِالْفَتَىٰ فِعْلُ التَّصَابِي) يعني نعم كما قلت لي (لاَ تَقُلِ الصِّبَا فِيهِ امْتِهَالٌ)، وأنه (يَقْبُحُ بِالْفَتَىٰ فِعْلُ التَّصَابِي) لكن ثمة أمر آخر أقبح من هذا، ما هو؟

قال: (وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّىٰ)،

التصابي في الفتىٰ عيب ومذمة وأمر قبيح، لكن أقبح من ذلك وأشد مذمة عندما يكون الشيخ الكبير تفتىٰ- أي يعمل عمل الفتيان الصغار، ولا يراعي فارق السن الذي وصل إليه- فيقول: هذا أشد قبحًا.

وَنَفْسَكَ ذُمَّ لاَ تَذْمُمْ سِوَاهَا لِعَيْبٍ فَهْيَ أَجْدَرُ مَنْ ذَمَمْتَا

ثم يقول: (وَنَفْسَكَ ذُمَّ لاَ تَذْمُمْ سِوَاهَا) أنت الآن من بداية النظم تذمني وتنقدني هذا النقد، والواجب أن تذم نفسك ولا تذمم سواها، انظر إلىٰ نفسك، إلىٰ تقصيرك..

وَنَفْسَكَ ذُمَّ لاَ تَذْمُمْ سِوَاهَا لِعَيْبٍ فَهْيَ أَجْدَرُ مَنْ ذَمَمْتَا

أجدر مَنْ اتجهت إليه بالذم والمعاتبة نفسك.

وَأَنْتَ أَحَقُّ بِالتَّفْنِيدِ مِنِّي وَلَوْ كُنْتَ اللَّبِيبَ لَمَا نَطَقْتَا

(وَأَنْتَ أَحَقُّ بِالتَّفْنِيدِ مِنِّي) كل هذا يقوله علىٰ لسان الشاب الذي كان يعاتبه.

(وَأَنْتَ أَحَقُّ بِالتَّفْنِيدِ مِنِّي)؛ التفنيد: أي التخطئة والنقد، فيقول له: (أَنْتَ أَحَقُّ بِالتَّفْنِيدِ مِنِّي) أي: أحق بالنقد وبالتخطئة.

(وَلَوْ كُنْتَ اللَّبِيبَ لَمَا نَطَقْتَا)؛

(وَلَوْ كُنْتَ اللَّبِيبَ): أي لو كنت صاحب لب.

(لَمَا نَطَقْتَا): أي بما نطقت به من عتب.

وَلَـوْ بَكَـتِ الـدِّمَا عَيْنَـاكَ خَوْفـًا لِـذَنْبِكَ لَـمْ أَقُـلْ لَـكَ قَـدْ أَمِنْتَـا

لو بكت عينك دمًا من ذنوبك وتفريطك لا أستطيع أن أقول لك أنك بهذا البكاء أمنت- أي من العذاب-.

وكل هذا يتضمن الحث علىٰ التوبة والإنابة وقوة الإقبال علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

وَمَـنْ لَـكَ بِالأَمَـانِ وَأَنْـتَ عَبْـدٌ أُمِـرْتَ فَمَـا ائْتَمَـرْتَ وَلاَ أَطَعْتَـا

كيف تأمن وأنت عبد لله ﷻ أمرك بطاعته، ونهاك عن معصيته، ولم تأتمر ولم تُطِع، أي حصل منك التفريط والتقصير في كثير مما أمرك الله ﷻ به.

ثَقُلْتَ مِنَ الـذُّنُوبِ وَلَسْتَ تَخْشَىٰ لِجَهْلِـكَ أَنْ تَخِـفَّ إِذَا وُزِنْتَـا

(ثَقُلْتَ مِنَ الذُّنُوبِ) أي: الذنوب التي فعلتها ذنوب ثقيلة، ومع ذلك (وَلَسْتَ تَخْشَىٰ لِجَهْلِكَ أَنْ تَخِفَّ إِذَا وُزِنْتَا) أي: أن يخف ميزانك، مشيراً إلىٰ قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم ﴿٩﴾﴾ [الأعراف].

قال: ولست تبالي (تَخْشَىٰ لِجَهْلِكَ أَنْ تَخِفَّ إِذَا وُزِنْتَا) أي: يخف ميزانك بما عندك من سيئات وذنوب كثيرة.

وَتُشْـفِقُ لِلْمُصِـرِّ عَلَـىٰ المَعَاصِـي وَتَرْحَمُـهُ وَنَفْسَـكَ مَـا رَحِمْتَـا

أشفقت عليّ ورحمتني وأخذت تبين لي أخطائي ونفسك لم ترحمها! اتجه لنفسك بهذه الرحمة (وَنَفْسَكَ مَا رَحِمْتَا).

رَجَعْـتَ الْقَهْقَـرَىٰ وَخَبَطْـتَ عَشْـوَا لَعَمْـرُكَ لَـوْ وَصَـلْتَ لمـا رَجَعْتَـا

(رَجَعْتَ الْقَهْقَرَىٰ وَخَبَطْتَ عَشْوَا)؛

(رَجَعْتَ الْقَهْقَرَىٰ) أي مشيت إلىٰ الخلف وإلىٰ الوراء.

(وَخَبَطْتَ عَشْوَا) خبط العشوا هو الذي لا يبصر ولا يرىٰ فيخبط دون أن يميز بلا بصر، فيخبط الأمور أي: خبطًا لا يميز فيه بين هدىٰ من ضلال، حق أو باطل، صحة أو فساد.

(لَعَمْرُكَ لَوْ وَصَلْتَ لما رَجَعْتَا) لو كنت فعلاً قد وصلت وبلغت المبالغ العالية الرفيعة في العبودية والطاعة لما رجعت، يعني لما حصل لك هذا الرجوع القهقرىٰ الذي حصل منك.

كل هذا يقوله في لومه الشديد لنفسه، ومعاتبته لها؛ وهذا بخلاف مَنْ هو مُقَصِّر في العمل ويرىٰ نفسه قد كمَّل الأمور وتممها.

فأهل الاستقامة فعلاً يجد ويجتهد في تتميم الأعمال وتكميلها، وهو يرىٰ نفسه من المقصرين المفرطين.

وَلَــوْ وَافَيْــتَ رَبَّــكَ دُونَ ذَنْــبٍ وَنُوقِشْــتَ الْحِسَــابَ إِذاً هَلَكْتَــا

يشير إلىٰ حديث أم المؤمنين عائشة في الصحيح [في الصحيحين] قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ نوقش الحساب هلك»؛ هذا لفظه في الصحيح، «مَنْ نوقش الحساب هلك» إلىٰ هذا المعنىٰ يشير بقوله: (وَنُوقِشْتَ الْحِسَابَ إِذاً هَلَكْتَا) مَنْ نوقش الحساب هلك.

قال:

وَلَــوْ وَافَيْــتَ رَبَّــكَ دُونَ ذَنْــبٍ وَنُوقِشْــتَ الْحِسَــابَ إِذاً هَلَكْتَــا

لماذا؟

قال:

وَلَــمْ يَظْلِمْــكَ فِــي عَمَــلٍ وَلٰكِــنْ عَسِــيرٌ أَنْ تَقُــومَ بِمَــا حُمِلْتَــا

أنت حُمِّلت أمانة عظيمة، وعسير أن تقوم بها علىٰ التمام والكمال إلا إذا ذلَّل الله لك ذلك ويسّره لك وأعانك عليه، فالأمانة حِمل عظيم جداً عسير أن تقوم بحملها والوفاء بها والقيام بها.

وَلَـمْ يَظْلِمْـكَ فِـي عَمَـلٍ وَلٰكِـنْ عَسِـيرٌ أَنْ تَقُـومَ بِمَـا حُمِلْتَـا

أي: الأمانـة التـي تحملتهـا وحملهـا الإنسـان ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب].

وَلَـوْ قَـدْ جِئْـتَ يَـوْمَ الْحَشْـرِ فَـرْداً وَأَبْصَـرْتَ الْمَنَـازِلَ فِيـهِ شَـتَّىٰ

(وَلَوْ قَدْ جِئْتَ يَوْمَ الْحَشْرِ فَرْداً)

كما قال الله ﷻ: ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم] أي: بلا ناصر ولا مُآزر ولا معـين، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس]

وَلَـوْ قَـدْ جِئْـتَ يَـوْمَ الْحَشْـرِ فَـرْداً وَأَبْصَـرْتَ الْمَنَـازِلَ فِيـهِ شَـتَّىٰ

(وَأَبْصَرْتَ الْمَنَازِلَ) أي: منازل الناس.

(شَتَّىٰ) أي: متفاوتة ومتباينة.

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأحقاف]

عندما تبصر ذلك وتبصر تلك المنازل المتباينة، ثم ترىٰ نفسك في ذلك الوقت جئت مفرطًا مضيّعًا مقصراً، ولم يكن لك منها حظ أو نصيب ماذا يفيدك الندم إذ ذاك؟

ولهذا يقول:

لأَعْظَمْـتَ النَّدَامَـةَ فِيـهِ لَهْفـاً عَلَـىٰ مَـا فِـي حَيَاتِـكَ قَـدْ أَضَـعْتَا

لأعظمت الندامة.. ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٥٦]؛ إذا أبصر، ورأىٰ، وعاين، وشاهد المنازل والدرجات والتفاوت بين العباد، ورأىٰ أنه جاء مقصراً ومضيعًا قال: ﴿ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٥٦]، لكن هذا التحسر والندم لا يفيد.

(لأَعْظَمْتَ النَّدَامَةَ فِيهِ) أي: في ذلك اليوم (لَهْفًا عَلَىٰ مَا فِي حَيَاتِكَ قَدْ أَضَعْتَا) أي: الدنيا قد أضعتا.

تَفِـــرُّ مِـــنْ الْهَجِيـــرِ وَتَتَّقِيـــهِ فَهَـــلاَّ مِـــنْ جَهَـــنَّمَ قَـــدْ فَرَرْتَـــا

(تَفِرُّ مِنْ الْهَجِيرِ)؛ وهذا يكون في الصيف والقيظ الشديد؛ الإنسان في الصيف يتحاشىٰ الشمس- الهجير: هو حرارة الشمس- (تَفِرُّ مِنْ الْهَجِيرِ) أي في الصيف الشديد تتحاشىٰ وتتجنب حرارة الشمس، وتجتهد في اتقائها إما بظل بيت أو ظل شمسية أو إيواء إلىٰ شجرة.. أو غير ذلك، تتقي الهجير.. أي أنت حريص أشد الحرص علىٰ سلامة جسمك من الهجير (حرارة الشمس)، فتجتهد في اتقائه.

تَفِـــرُّ مِـــنْ الْهَجِيـــرِ وَتَتَّقِيـــهِ فَهَـــلاَّ مِـــنْ جَهَـــنَّمَ قَـــدْ فَرَرْتَـــا

جهنم أعظم من الهجير، وحرُّها أشد، فإذا كنت فعلاً هذا شأنك.. تعتني بجسمك وتحافظ عليه بحيث أن حرارة الشمس لا تصيبه بضرر، وتجتهد في ذلك فأولىٰ من ذلك أن تجتهد في وقاية جسمك من النار.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم].

وَلَسْـــتَ تُطِيـــقُ أَهْوَنَهَـــا عَـــذَابًا وَلَـــوْ كُنْـــتَ الْحَدِيـــدَ بِهَـــا لَـــذُبْتَا

(وَلَسْتَ تُطِيقُ أَهْوَنَهَا عَذَابًا) هذه النار لا تطيق أهونها.. أي: أقل ما في النار عذابًا لا تطيقه ولا تحتمله، وجاء في الصحيحين عن النعمان بن بشير إن النبي ﷺ قال: «إنّ أهونَ أهل النار عذابًا يوم القيامة لرجلٌ توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماهما»، فيقول: (وَلَسْتَ تُطِيقُ أَهْوَنَهَا عَذَابًا).

(وَلَوْ كُنْتَ الْحَدِيدَ بِهَا لَذُبْتَا) لو كان جسمك حديد لذاب في النار فكيف بهذا الجسم المكون من شحم ولحم وعظام؟ كيف سيكون شأنه في النار؟!

لو كنت الحديد لذبت لصهرتك من شدة حرارتها فكيف إذاً بهذا الجسم؟

ثم يؤكد ما سبق بقوله: (وَلاَ تُنْكِرْ فَإِنَّ الأَمْرَ جِدٌّ) الأمر جد، ليس بالهزل..

وَلاَ تُنْكِـــرْ فَـــإِنَّ الأَمْـــرَ جِـــدٌّ وَلَـــيْسَ كَمَـــا حَسِـــبْتَ وَلاَ ظَنَنْتَـــا

قال رحمه الله:

"أَبَـا بَكْـرٍ" كَشَـفْتَ أَقَـلَّ عَيْبِـي وَأَكْثَـــرَهُ وَمُعْظَمَـــهُ سَـــتَرْتَا

فَقُـلْ مَـا شِـئْتَ فِـيَّ مِـنَ الْمَخَـازِي وَضَـــاعِفْهَا فَإِنَّـــكَ قَـــدْ صَـــدَقْتَا

وَمَهْمَـــا عِبْتَنِـــي فَلِفَـــرْطِ عِلْمِـــي بِبَاطِنِـــهِ كَأَنَّـــكَ قَـــدْ مَـــدَحْتَا

فَـــلاَ تَـــرْضَ الْمَعَايِـــبَ فَهُـــوَ عَـــارٌ عَظِـــيمٌ يُـــورِثُ الْمَحْبُـــوبَ مَقْتَـــا

وَيَهْـــوِي بِالْوَجِيـــهِ مِـــنَ الثُّرَيَّـــا وَيُبْدِلُـــهُ مَكَـــانَ الْفَـــوْقِ تَحْتَـــا

كَمَـا الطَّاعَـاتُ تُبْـدِلُكَ الـدَّرَارِي وَتَجْعَلُـــكَ الْقَرِيـــبَ وَإِنْ بَعُـــدْتَا

وَتَنْشُـرُ عَنْـكَ فِـي الـدُّنْيَا جَمِـيلاً وَتَلْقَـــىٰ البِـــرَّ فِيهَـــا حَيْـــثُ شِـــئْتَا

وَتَمْشِـــي فِـــي مَنَاكِبِهَـــا عَزِيـــزاً وَتَجْنِـي الْحَمْـدَ فِيمَـا قَـدْ غَرَسْـتَا

وَأَنْـــتَ الآنَ لَـــمْ تُعْـــرَفْ بِعَيْـــبٍ وَلاَ دَنَّسْـــتَ ثَوْبَـــكَ مُـــذْ نَشَـــأْتَا

وَلاَ سَـــابَقْتَ فِـــي مَيْـــدَانِ زُورٍ وَلاَ أَوْضَـــعْتَ فِيـــهِ وَلاَ خَبَبْتَـــا

فَـــإِنْ لَـــمْ تَنْـــأَ عَنْـــهُ نَشِـــبْتَ فِيـــهِ وَمَـــنْ لَـــكَ بِـــالْخَلاَصِ إِذَا نَشِـــبْتَا

تُـــدَنِّسُ مَـــا تَطَهَّـــرَ مِنْـــكَ حَتَّـــىٰ كَأَنَّـــكَ قَبْـــلَ ذَلِـــكَ مَـــا طَهُرْتَـــا

وَصِـــرْتَ أَسِـــيرَ ذَنْبِـــكَ فِـــي وَثَـــاقٍ وَكَيْـــفَ لَـــكَ الْفِكَـــاكُ وَقَـــدْ أُسِـــرْتَا

فَخِـفْ أَبْنَـاءَ جِنْسِـكَ وَاخْـشَ مِـنْهُم كَمَـا تَخْشَـىٰ الضَّـرَاغِمَ وَالسَّـبَنْتَىٰ

وَخَـــالِطْهُمْ وَزَايِلْهُـــم حِـــذَاراً وَكُـــنْ كَـــ "السَّـــامِرِيِّ" إِذَا لُمِسْـــتَا

وَإِنْ جَهِلُـــوا عَلَيْـــكَ فَقُـــلْ: سَـــلاَمٌ لَعَلَّـــكَ سَـــوْفَ تَسْـــلَمُ إِنْ فَعَلْتَـــا

وَمَـــنْ لَـــكَ بِالسَّـــلاَمَةِ فِـــي زَمَـــانٍ تَنَـــالُ الْعِصْـــمَ إِلاَّ إِنْ عُصِـــمْتَا

وَلاَ تَلْبَــثْ بِحَــيٍّ فِيــهِ ضَــيْمٌ ... يُمِيــتُ الْقَلْــبَ إِلاَّ إِنْ كُبِلْتَــا

وَغَــرِّبْ فَــالتَّغَرُّبُ فِيــهِ خَيْــرٌ ... وَشَــرِّقْ إِنْ بِرِيقِــكَ قَــدْ شَــرِقْتَا

فَلَـيْسَ الزُّهْـدُ فِـي الـدُّنْيَا خُمُـولاً ... لأَنْــتَ بِهَــا الأَمِيــرُ إِذَا زَهِــدْتَا

وَلَــوْ فَــوْقَ الأَمِيــرِ تَكُــونُ فِيهَــا ... سُــمُّواً وَارْتِفَاعــاً كُنْــتَ أَنْتَــا

فَــإِنْ فَارَقْتَهَــا وَخَرَجْــتَ مِنْهَــا ... إِلَــىٰ "دَارِ السَّــلاَمِ" فَقَــدْ سَــلِمْتَا

وَإِنْ أَكْرَمْتَهَــا وَنَظَــرْتَ فِيهَــا ... لإِكْــرَامٍ فَنَفْسَــكَ قَــدْ أَهَنْتَــا

جَمَعْــتُ لَــكَ النَّصَــائِحَ فَامْتَثِلْهَــا ... حَيَاتَــكَ فَهْــيَ أَفْضَــلُ مَــا امْتَثَلْتَــا

وَطَوَّلْــتُ الْعِتَــابَ وَزِدْتُ فِيــهِ ... لأَنَّــكَ فِــي الْبَطَالَــةِ قَــدْ أَطَلْتَــا

وَلاَ يَغْــرُرْكَ تَقْصِــيرِي وَسَــهْوِي ... وَخُــذْ بِوَصِــيَّتِي لَــكَ إِنْ رَشَــدْتَا

وَقَــدْ أَرْدَفْتُهَــا تِسْــعاً حِسَــاناً ... وَكَانَــتْ قَبْــلَ ذَا مِائَــةً وَسِــتَّا

وَصَــلِّ عَلَــىٰ تَمَــامِ الرُّسْــلِ رَبِّــي ... وَعِتْرَتِــهِ الْكَرِيمَــةِ مَــا ذُكِرْتَــا

اللهم صلِّ وسلم علىٰ عبد الله ورسوله نبينا محمد.

يقول رحمه الله أبا بكر.. وأبو بكر هذا هو مَنْ أنشأ أبو إسحاق الإلبيري رحمه الله تعالىٰ هذه القصيدة الجميلة المتينة المليئة بالوصايا العظيمة نُصحاً له، وتحذيراً له، وتوجيهاً إلىٰ الاستقامة والسداد واللزوم لطاعة الله تبارك وتعالىٰ.

ومن السياق الذي نراه هنا يُعلَم أن أبا بكر كان قد تكلّم في بعض معايب أبي إسحاق وانتقده في أشياء، وتجرأ عليه في بعض الأمور.

فيقول له أبو إسحاق هنا: ("أَبَا بَكْرٍ" كَشَفْتَ أَقَلَّ عَيْبِي) يعني الكلام الذي قلته عني هو في الحقيقة كشف لأقل عيبي.

(وَأَكْثَرَهُ وَمُعْظَمَهُ سَتَرْتَا)؛ أكثر معايبي وأخطائي سترتها، ما نشرتها ولا تكلمت فيها عندما تكلّمت في معايبي.

فَقُـلْ مَـا شِـئْتَ فِـيَّ مِـنَ الْمَخَـازِي وَضَـــاعِفْهَا فَإِنَّـــكَ قَـــدْ صَـــدَقْتَا

(فَقُلْ مَا شِئْتَ فِيَّ مِنَ الْمَخَازِي)؛ تحدَّث (مَا شِئْتَ فِيَّ مِنَ الْمَخَازِي) عَدِّد ما شئت من العيوب والأخطاء، عَدِّد ما شئت من ذلك.

(وَضَاعِفْهَا) يعني الذي تقوله أيضـاً زد عليه وضاعفه (فَإِنَّكَ قَدْ صَدَقْتَا) لأن التفريط الذي عندي كبير وعظيم جداً.

كل هذا يقوله هضماً لنفسه، كل ذلك يقوله هضماً لنفسه رحمه الله تعالىٰ شأن الصالحين.

وَمَهْمَـــا عِبْتَنِـــي فَلِفَـــرْطِ عِلْمِـــي بِبَـــاطِنِتِي كَأَنَّـــكَ قَـــدْ مَـــدَحْتَا

(فَلِفَرْطِ عِلْمِي) يعني لشدة علمي.

(بباطنتي) هكذا في بعض النسخ وهو أولىٰ..

وَمَهْمَـــا عِبْتَنِـــي فَلِفَـــرْطِ عِلْمِـــي بِبَـــاطِنِتِي كَأَنَّـــكَ قَـــدْ مَـــدَحْتَا

باطنتي: أي سريرتي.

مهما قلت فيّ من الذنوب فلما أعلمه من نفسي وتفريطي وتقصيري، والأمور التي أعلمها من سري وباطنتي، كأنك في تلك الأبيات والكلمات التي كنت تذمني كأنك تمدحني لأنها في مقابل ما أعرفه عن نفسي إنما قلت شيئًا قليلاً.

أذكر قريبًا من هذا المعنىٰ.. أحد الدعاة جاءه شخص وهذا يجري من بعض الشباب والناشئة يحبون نقل الأقوال مما يوغر الصدور، ويوجد في النفوس الضغينة، فأحد الدعاة جاءه شاب وقال: إن فلان قال فيك كذا وكذا، إن فلانًا قال فيك كذا وكذا، وذكر له أشياء قالها فيه، فقال ذلك الداعية لذلك الشاب: الذي قاله فلان فيّ مبني علىٰ عدم علمه ومعرفته بحالي، ولو كان يعرف من حالي ما أعلمه منها، ولو كان يعلم من تقصيري ما أعلمه من تقصيري لأدرك أن الذي قاله فيّ شيء قليل من الخطأ والتقصير، لكن الله ﷻ يستر علىٰ

العباد، وإلا هذا الذي قاله في وانتقده في مبني علىٰ عدم علمه بحالي، فذكر هذا الشيء القليل، وإلا لو يعرف من نفسي ما أعلمه منها من تقصير وتفريط لكان كلامه أشد وأشنع من هذا.

يقول ذلك الداعية: فبكىٰ هذا الشاب الوسيط الذي كان ينقل هذا الكلام.

والذي ينبغي فعلاً علىٰ الجميع أن ينظر الإنسان لتفريط نفسه وتقصيرها، كم فرّطنا في جنب الله؟ وكم قصّرنا في طاعة الله؟ وكم ارتكبنا من الأخطاء؟ وكم؟ وكم؟.. ينظر الإنسان في نفسه، لا يكون حاله فقط مهتم بأخطاء الآخرين وينسىٰ نفسه وتفريطه.

يعني بعض الناس بلغ به الحال أن يضيع صلاة الفجر، وإذا أصبح بدا ينتقد فلان وفلان، ويخطي فلان وعلان وهو مفرط مضيّع لفرائض وواجبات ومقصر في جنب الله.

فإذاً هذا الكلام حقيقة يستفيد منها طالب العلم.

.....

وإذا انتُقِدت لا تتألم؛ لأنك لو نظرت في نفسك فعلاً ستجد أن الذي نُقِدت به قليل من كثير، مما تعلمه عن نفسك وستره الله عليك، لكن اجعلها بابًا لتزداد إقبالاً وتوبةً وإنابةً إلىٰ الله ﷻ.

وبمثل هذا يصلح الإنسان في نفسه ويصلح أيضاً مَنْ حوله ويتحقق الخير، بخلاف حال الشغب التي يُتبلىٰ بها بعض الناس، وربما أن الشخص يُنتقَد بانتقاد فينسىٰ نفسه وأخطاءها، ويبدأ يفكر بماذا يتهجم علىٰ منتقده ولو بالكذب عليه والافتراء وتقويله ما لم يقل أو تضخيم الأمور، أو نحو ذلك.

مثل هذا التواضع ومثل هذا الهضم للنفس وقوف طالب العلم عليه من نِعَم الله الكبار حتىٰ يستفيد من مناهج هؤلاء العلماء.

ابن القيم رحمه الله ينقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يقول: ما أنا بشيء، ولست بشيء، ما كانوا يرون أنفسهم، ولا كانوا يعظمون أنفسهم؛ بل لا يزال يرىٰ نفسه مقصراً، اقرأ

مثل ذلك بأبلغ ما يكون في هذا الباب في سِيَر الصحابة ﷺ؛ ماذا قال عبد الله بن أبي مليكة وهو تابعي جليل؟

قال: أدركتُ أكثر من ثلاثين صحابيًا كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه.

قال رحمه الله:

فَلاَ تَرْضَ الْمَعَايِبَ فَهُو عَارٌ عَظِيمٌ يُورِثُ الْمَحْبُوبَ مَقْتَا

يعني لا تشتغل في هذا الجانب وتشغل نفسك به، فعار عظيم يعني هذا الأمر (عَارٌ عَظِيمٌ يُورِثُ الْمَحْبُوبَ مَقْتَا) الإنسان الذي له مكانة ومحبة في الناس إذا اشتغل بهذا الأمر أورثه ذلك مقتًا بخلاف مَنْ يعمل علىٰ إصلاح نفسه وإصلاح الآخرين.

وَيَهْوِي بِالْوَجِيهِ مِنَ الثُّرَيَّا وَيُبْدِلُهُ مَكَانَ الْفَوْقِ تَحْتَا

(وَيَهْوِي بِالْوَجِيهِ مِنَ الثُّرَيَّا) الإنسان الوجيه عالي المكانة، رفيع المنزلة يهوي به مثل هذا المسلك من الثريا إلىٰ الثرىٰ..

وَيَهْوِي بِالْوَجِيهِ مِنَ الثُّرَيَّا وَيُبْدِلُهُ مَكَانَ الْفَوْقِ تَحْتَا

أي بدل أن كان منزلته فوق عالية في النفوس تصبح منزلته تحت.

كَمَا الطَّاعَاتُ تُبْدِلُكَ الدَّرَارِي وَتَجْعَلُكَ الْقَرِيبَ وَإِنْ بَعُدْتَا

(كَمَا الطَّاعَاتُ تُبْدِلُكَ الدَّرَارِي) كما الطاعات إن اشتغلت بها واعتنيت بها وواظبت عليها (تُبْدِلُكَ الدَّرَارِي) أي: تبدلك المنزلة الدنيا إلىٰ المنزلة العالية الرفيعة، والدراري: هي الكواكب العالية في السماء.

(وَتَجْعَلُكَ الْقَرِيبَ وَإِنْ بَعُدْتَا) لأن الطاعة والعبادة هي التي تُقَرِّب وتُحَبِّب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم] أي: مودة ومحبة.

وَتَنْشُرُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا جَمِيلاً وَتَلْقَىٰ الْبِرَّ فِيهَا حَيْثُ شِئْتَا

(وَتَنْشُرُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا جَمِيلاً) عنايتك بالطاعات ومحافظتك عليها واهتمامك بها (تَنْشُرُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا جَمِيلاً) أي: الذِّكر الجميل الطيب الحسن.

(وَتَلْقَىٰ البِرَّ فِيهَا حَيْثُ شِئْتَا) أي: أنك لا تنال منها ومن اشتغالك بها إلا البر أينما توجهت وفي أي أمر شئت، بمعنىٰ: أن الطاعات تفتِّح للعبد أبواب الخير، وترقيه في منازله ودرجاته.

وَتَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا عَزِيزاً وَتَجْنِي الْحَمْدَ فِيمَا قَدْ غَرَسْتَا

(وَتَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا عَزِيزاً) إذا كنت من أهل الطاعة (تَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا) أي: الأرض (عَزِيزاً).

(وَتَجْنِي الْحَمْدَ فِيمَا قَدْ غَرَسْتَا) أي: تجني العاقبة الحميدة فيما غرسته من طاعات وعبادات عُنيت بها في حياتك.

وَأَنْتَ الآنَ لَمْ تُعْرَفْ بِعَيْبٍ وَلاَ دَنَّسْتَ ثَوْبَكَ مُذْ نَشَأْتَا

ثم يعود بالوصية لذلك الشاب فيقول: (وَأَنْتَ الآنَ) يا أبا بكر (لَمْ تُعْرَفْ بِعَيْبٍ).

وانظر هذا الكلام ما أجمله في باب النصيحة والوعظ، يعني حتىٰ لو كان تعلم منه بعض التفريط أو التقصير في مثل هذا المقام أَحْسِبْهُ بأنه لا زال في سلامة وعافية لم يدخل بعد.. إذا كان عنده ذنوب قل له مثلاً: إذا كنت تعلم عنه ذنوب تريد أن تعالجها فيه تقول له: يا أخي! أنت ما شاء الله في عافية الآن، وفي سلامة، نجّاك الله ووقاك من كذا وكذا من ذنوب كبار تعلمها سلَّمه الله منها، فها أنت تصلي، ها أنت- مثلاً- بار بوالديك، عدِّد له مثل هذه الأشياء التي تكون بإذن الله ﷻ عون للشاب؛ بخلاف أن تنسىٰ مثل هذه المعاني وتجتهد في سرد ما تعلمه من جوانب التقصير حتىٰ يحس من سردك لما عنده من تقصير أنه تمامًا جاني ومعتدي وليس فيه أي جانب من جوانب الخير.

فانظر كلامه الجميل حيث يقول: (وَأَنْتَ الآنَ لَمْ تُعْرَفْ بِعَيْبٍ) (لَمْ تُعْرَفْ بِعَيْبٍ) يعني إن كان عندك معايب لن تبلغ مبلغ أنك عُرفت بها واشتُهرت، ويُتحدَّث عنك بها، ما زلت في عافية من ذلك..

وَأَنْتَ الآنَ لَمْ تُعْرَفْ بِعَيْبٍ وَلاَ دَنَّسْتَ ثَوْبَكَ مُذْ نَشَأْتَا

(وَلاَ دَنَّسْتَ ثَوْبَكَ مُذْ نَشَأْتَا) ما دنست ثوبك يعني بالوقوع في العظائم وقبائح الأمور وشنائع الأعمال، لم تندس ثوبك بذلك مذ نشأت.

وَلاَ سَـــابَقْتَ فِـــي مَيْـــدَانِ زُورٍ وَلاَ أَوْضَـــعْتَ فِيـــهِ وَلاَ خَبَبْتَـــا

(وَلاَ سَابَقْتَ فِي مَيْدَانِ زُورٍ) لم يحصل منك أن سابقت في ميدان الزور، والزور: هو المنكر، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان:٧٢] (وَلاَ سَابَقْتَ فِي مَيْدَانِ زُورٍ).

(وَلاَ أَوْضَعْتَ فِيهِ) أي: ميدان الزور.

(وَلاَ خَبَبْتَا) والخبب: نوع من العدو والسيْر.

يقول: أنت ما سلكت فيه لا بسرعة ولا ببطء، لم تسلكه ولم تَسِر فيه لا بسرعة ولا ببطء.

وَلاَ سَـــابَقْتَ فِـــي مَيْـــدَانِ زُورٍ وَلاَ أَوْضَـــعْتَ فِيـــهِ وَلاَ خَبَبْتَـــا

فَـــإِنْ لَـــمْ تَنْـــأَ عَنْـــهُ نَشِـــبْتَ فِيـــهِ وَمَـــنْ لَـــكَ بِـــالْخَلاَصِ إِذَا نَشِـــبْتَا

(فَإِنْ لَمْ تَنْأَ عَنْهُ نَشِبْتَ فِيهِ) انتبه!؛ يقول له، أنت الآن في عافية إن لم تنأ عنه وتبتعد عن مشهد الزور (إِنْ لَمْ تَنْأَ عَنْهُ نَشِبْتَ فِيهِ)؛ لأنك إن دخلت وضعت قدمك في مشهد الزور (نَشِبْتَ) أي: تورطت.

وكم إنسان كان في عافية ثم وضع قدمه فتورط وورط نفسه؛ فيقول: أنت الآن في عافية، وإياك أن تضع قدمك لأنك إن وضعتها نشبت وتورطت.

فَـــإِنْ لَـــمْ تَنْـــأَ عَنْـــهُ نَشِـــبْتَ فِيـــهِ وَمَـــنْ لَـــكَ بِـــالْخَلاَصِ إِذَا نَشِـــبْتَا

احمد الله علىٰ العافية وأنك ما دخلت مشهد الزور، لكن إن دخلت ونشبت مَنْ لك بالخلاص؟

كيف تتضمن لنفسك أنها تخلص من ذلك؟!

(وَمَنْ لَكَ بِالْخَلاَصِ إِذَا نَشِبْتَا).

تُـــدَنِّسُ مَـــا تَطَهَّـــرَ مِنْـــكَ حَتَّـــىٰ كَأَنَّـــكَ قَبْـــلَ ذَلِـــكَ مَـــا طَهُرْتَـــا

يعني إن دخلت في مسلك الزور ونشبت فيه ما الذي سيحصل؟

الذي سيحصل أنك تدنس ما تطهر منك، أنت في طهارة وعافية إن دخلت مشهد الزور وخطوت فيه تدنست وتلطخت وتلوثت (كَأَنَّكَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا طَهُرْتَا) يعني مَنْ يراك ما يشعر أو يحس أنك قبل ذلك كنت طاهراً.

الإمام أحمد رحمه الله ضرب لهذا المعنىٰ مثلاً عجيباً نقله عنه ابن مفلح في الآداب الشرعية، مثلاً للذنوب وكيف أنها تلوث الإنسان.

قال: مثل ذلك- وهذا معنىٰ كلامه رحمه الله، مثل ذلك: مَثَل رجل جاء في طريق وعليه ثياب نظيفة وإذا الطريق فيه وحل (طين)، وأنت تعرف أن الإنسان إذا جاء في طريق وفيه وحل وطين.. ماذا يصنع وهو محتاج أن يمر؟

تجده في أول الأمر يحاول أن يلم ثيابه، وأن ينظر جيداً في الأرض، ينظر بدقة وين يوجد فيها صخرة، وين يوجد فيها أرض يابسة، فيسير بدقة جيدة بحيث لا يتلوث منه شيء، ولا يضع قدمه إلا في مكان واضح تماماً أنه لا يلوثه ويمشي بحذر، ثم قد يضعف الحذر فيلامسه شيء من الطين، ثم يلامسه شيء من الطين، ماذا يصنع بعد ذلك إن لامس طين هنا وهنا وهو كان يتوقىٰ لكنه يخطو ولامسه شيء من الطين؟

سيمشي في الطين ولا يبالي بعد ذلك؛ هذا مَثَل الذنوب إذا وضع الإنسان، وهذا معنىٰ قول الناظم (مَنْ لَكَ بِالْخَلاَصِ إِذَا نَشِبْتَا)، إذا نشبت في الطين ودخلت مَنْ لك بالخلاص؟

فما دمت في عافية لا تلوث نفسك ولا تلطخها، والسلامة- يقولون- لا يعدلها شيء.

وَصِرْتَ أَسِيرَ ذَنْبِكَ فِي وَثَاقٍ وَكَيْفَ لَكَ الْفِكَاكُ وَقَدْ أُسِرْتَا

(وَصِرْتَ أَسِيرَ ذَنْبِكَ فِي وَثَاقٍ) أي: إن دخلت هذا المدخل ستصبح أسير الذنب، لأن الذنب هو الذي سيكون مسيطراً عليك، (وَكَيْفَ لَكَ الْفِكَاكُ وَقَدْ أُسِرْتَا)؛ فإذاً من الخير لك قبل أن تكون أسيراً لا تدخل الأسر، أَسْر الذنوب واجتهد ألا تورط نفسك في ذلك.

فَخِفْ أَبْنَاءَ جِنْسِكَ وَاخْشَ مِنْهُم كَمَا تَخْشَىٰ الضَّرَاغِمَ وَالسَّبَتَىٰ

ثم يحذره من قرناء السوء وخلطاء الفساد فيقول: (فَخِفْ أَبْنَاءَ جِنْسِكَ وَاخْشَ مِنْهُم)؛ أي: احذر من الأصحاب الذين تعلم أن في صُحبتك لهم شر عليك، وفي الحديث الصحيح يقول عليه الصلاة والسلام: «المرء علىٰ دين خليله فلينظر أحدكم مَنْ يخالل».

فإذاً يقول له: تنبه لمسألة الأصحاب والرفقاء، ليس لك أن تمشي مع كل أحد

فَخِفْ أَبْنَاءَ جِنْسِكَ وَاخْشَ مِنْهُم كَمَا تَخْشَىٰ الضَّرَاغِمَ وَالسَّبَتَىٰ

بمثل ما تخشىٰ الأسود والنمور أي: مثل خشيتك للحيوانات المفترسة، احذرهم، وأنأىٰ عنهم وابتعد بنفسك حتىٰ لا يورطوك فيما تورطوا فيه.

ومصيبة الفاسد أنه دائماً يجتهد في إفساد مَنْ حوله ولا يريد أن يكون وحده المشار إليه بالبنان في الفساد، وهذا المعنىٰ أوضحه عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: (ودَّت الزانية لو زنا النساء جميعًا)، يعني لا تريد أن تكون وحدها التي يشار إليها ويُتحدَّث عنها في حيِّها أو في منطقتها.. فلانة كيت وفلانة..، تريد أن يكون معها مائة أو أكثر في ذلك.

ولهذا؛ الفاسد حريص علىٰ أن يفسد مَنْ حوله، وأن يطيح بعدد ممَنْ حوله فيما تورّط فيه وتجده يزين لهم أموراً هو يعرف أنها لا فائدة فيها وأنها مضرة بحتة لكنه يزينها ويحسنها ليورطهم كما تورط، ويوقعهم فيها كما وقع، فيقول: احذر هؤلاء أشد الحذر.

وَخَالِطْهُمْ وَزَايِلْهُم حِذَاراً وَكُنْ كَـ "السَّامِرِيِّ" إِذَا لُمِسْتَا

قال: (وَخَالِطْهُمْ وَزَايِلْهُم حِذَاراً) يعني فيما يضطر الإنسان إليه من مخالطة.. يقول: أصلاً احذر أنك تقترب منهم، لكن إن اضطررت للمخالطة فـ (خَالِطْهُمْ وَزَايِلْهُم) المزايلة هي المفارقة والمباينة (وَخَالِطْهُمْ وَزَايِلْهُم حِذَاراً) يعني كن حذِراً، عندما تخالطهم خالطهم بالحذَر.

وَخَالِطْهُمْ وَزَايِلْهُم حِذَاراً وَكُنْ كَـ "السَّامِرِيِّ" إِذَا لُمِسْتَا

(وَكُنْ كَـ "السَّامِرِيِّ" إِذَا لُمِسْتَا)..

قال: ﴿فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ [طه:٩٧].

قال موسىٰ عليه السلام للسامري بعد جريمته الشنيعة وضلالته العظيمة التي سنَّها وأوجدها في بني إسرائيل عندما دعاهم إلىٰ عبادة العجل وقال ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨﴾ [طه]، ﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ [طه:٩٧].

﴿لَا مِسَاسَۖ﴾ [طه:٩٧] قيل في كتب التفسير: أي لا أحد يمسني لأنه إن مسّه أحد أُصيب بحمىٰ شديدة، ومَنْ مسَّه أُصيب بها أيضاً، مجرد أن يُمَس أو يلمس أحد يصاب بحمىٰ شديدة، وأيضاً مَنْ مَسّه يصاب بها قيل ذلك.

فكان إذا خالط الناس هذا السامري يحذرهم أن أحد يلمسه؛ لأن أي لمس له يترتب عليه معاناة شديدة له وللامس، فيقول:

وَخَالِطْهُمْ وَزَايِلْهُمْ حِذَاراً وَكُنْ كَـ "السَّامِرِيِّ" إِذَا لُمِسْتَا

يعني في مخالطتك لهم احذر أن يصيبك شيء من أوبئتهم وفسادهم وضلالهم، الأصل أن تبتعد لكن فيما اضطررت إليه من مخالطة فليكن ذلك عن حذر شديد.

وَإِنْ جَهِلُوا عَلَيْكَ فَقُلْ: سَلاَمٌ لَعَلَّكَ سَوْفَ تَسْلَمُ إِنْ فَعَلْتَا

(وَإِنْ جَهِلُوا عَلَيْكَ فَقُلْ: سَلاَمٌ) ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان]؛ هذا شأن عباد الرحمن، يعني لا تخاطب الجاهل بمثل جهله، سبٌّ بسب، وشتمٌ بشتم، وإنما أعرض عن الجاهلين وقل سلاماً..

وَإِنْ جَهِلُوا عَلَيْكَ فَقُلْ: سَلاَمٌ لَعَلَّكَ سَوْفَ تَسْلَمُ إِنْ فَعَلْتَا

أي: بإعراضك عن الجاهلين، وتقول سلام، ولا تحرص علىٰ المصادمة معهم لعلك تسلم بإعراضك عن الجاهلين.

وَمَنْ لَكَ بِالسَّلاَمَةِ فِي زَمَانٍ تَنَالُ الْعِصْمَ إِلاَّ إِنْ عُصِمْتَا

(وَمَنْ لَكَ بِالسَّلاَمَةِ فِي زَمَانٍ تَنَالُ الْعِصْمَ) يعني كيف تنال العِصْم.. يعني العصمة والسلامة من الشر والأشرار إلا إن عُصِمت، إلا إن عصمك الله ووقاك ونجّاك ﷻ.

هذا يقوله في زمانه (وَمَنْ لَكَ بِالسَّلاَمَةِ فِي زَمَانٍ).

(تَنالُ الْعِصْمَ إِلاَّ إِنْ عُصِمْتَا) إلا إن عصمك الله، إلا أن نجّاك الله ووقاك وسلمك.

نسأل الله لنا أجمعين السلامة والعافية في الدنيا والآخرة.

قال:

وَلاَ تَلْبَثْ بِحَيٍّ فِيهِ ضَيْمٌ يُمِيتُ الْقَلْبَ إِلاَّ إِنْ كُبِلْتَا

يعني اضطررت علىٰ البقاء فيه.

فإذا كان الحي الذي أنت فيه.. فيه ضيم وظلم وعدوان لك يميت القلب لا تبقَ فيه، انتقل إلىٰ منطقة أخرىٰ، أو بلد آخر، أو مكان آخر.. إلىٰ أين؟

قال:

وَغَرِّبْ فَالتَّغَرُّبُ فِيهِ خَيْرٌ وَشَرِّقْ إِنْ بِرِيقِكَ قَدْ شَرِقْتَا

يعني تخير من جهة الغرب أو من جهة الشرق الأمكنة التي تجد فيها من الأخيار وأهل الفضل والنُّبل مَنْ يعينونك علىٰ الخير ويؤازرونك فيه.

فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولاً لأَنْتَ بِهَا الأَمِيرُ إِذَا زَهِدْتَا

حثّ هنا علىٰ الزهد، ورغَّب فيه قال: (أَنْتَ بِهَا الأَمِيرُ إِذَا زَهِدْتَا) حقًا وصدقًا.

والزهد ليس هو الخمول، لأن من الناس مَنْ يفهم الزهد هو الخمول والبطالة والكسل والانقطاع عن المصالح والأمور فليس هذا الزهد.

فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولاً لأَنْتَ بِهَا الأَمِيرُ إِذَا زَهِدْتَا

وقيل في تعريف الزهد: ترْك ما لا يُحتاج إليه من الدنيا.

قال:

وَلَوْ فَوْقَ الأَمِيرِ تَكُونُ فِيهَا سُمُّواً وَارْتِفَاعاً كُنْتَ أَنْتَا

يقول:

فَلَـيْسَ الزُّهْـدُ فِـي الـدُّنْيَا خُمُـولاً لأَنْـــتَ بِهَـــا الأَمِيـــرُ إِذَا زَهَـــدْتَا

يعني الإمارة في الزهد لأن الزاهد حقـًا وصدقـًا يجعل الله له مكانة ومنزلة ومحبة في القلوب، قال:

وَلَـــوْ فَـــوْقَ الأَمِيـــرِ تَكُـــونُ فِيهَـــا سُـــمُّواً وَارْتِفَاعـــًا كُنْـــتَ أَنْتَـــا

وهذا ينبه في أن الزهد هو بأن لا تكون الدنيا في قلب الإنسان مسيطرة عليه، ولا يمنع أن تكون في يد الزاهد لكنها لا تكون في قلبه، فقد يكون له مثلاً منصب عالي أو له مال ويكون زاهد، وهذا أمر يُعرَف ويُعلَم.. قد يكون آتاه الله مال، أو آتاه الله مثلاً رئاسة أو نحو ذلك ويكون زاهداً.

خذ أقرب مثال عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين، مع الإمرة التي كان عليها يُضرَب به المثل في الزهد، وقد يكون تاجراً وأعطاه الله مالاً كثيراً ويُضرَب به المثل أيضـًا في الزهد.

فيقول:

وَلَـــوْ فَـــوْقَ الأَمِيـــرِ تَكُـــونُ فِيهَـــا سُـــمُّواً وَارْتِفَاعـــًا كُنْـــتَ أَنْتَـــا

فَـــإِنْ فَارَقْتَهَـــا وَخَرَجْـــتَ مِنْهَـــا إِلَـــىٰ "دَارِ السَّـــلاَمِ" فَقَـــدْ سَـــلِمْتَا

يعني اجعل همتك في الخروج من هذه الحياة السلامة والعافية، فإن فارقتها وخرجت منها إلىٰ دار السلام فقد سلمتا.

وَإِنْ أَكْرَمْتَهَـــا وَنَظَـــرْتَ فِيهَـــا لإِكْـــرَامٍ فَنَفْسَـــكَ قَـــدْ أَهَنْتَـــا

يعني إن شغلت الدنيا قلبك وسيطرت علىٰ نفسك فإنك في هذه الحالة قد أهنت نفسك، وهذا تنبيه علىٰ معنىٰ عظيم في الزهد وبيان حقيقته علىٰ خلاف ما قد يُظَن أن الزهد هو مجرد الخمول.

فنبه أن الزهد ألا تكون الدنيا في قلبك، شاغلة نفسك، مسيطرة علىٰ فؤادك، هي أكبر همك ومبلغ علمك، حتىٰ ولو كان الإنسان وفي قلبه هذه المعاني مُرَقَّع الثياب ليس زاهداً،

حتىٰ لو كانت ثيابه مرقعة ومظاهره فيها تقشف.. إلىٰ آخر ذلك وقلبه مسيطر عليه الدنيا ومطامعها وهي همه ومبلغ علمه.. لا. ليس زاهداً.

فهذا تنبيه علىٰ معنىٰ عظيم.. قال:

وَإِنْ أَكْرَمْتَهَا وَنَظَرْتَ فِيهَا ... لِإِكْرَامٍ فَنَفْسَكَ قَدْ أَهَنْتَا

جَمَعْتُ لَكَ النَّصَائِحَ فَامْتَثِلْهَا ... حَيَاتَكَ فَهْيَ أَفْضَلُ مَا امْتَثَلْتَا

ثم ختم هذا النظم بقوله: (جَمَعْتُ لَكَ النَّصَائِحَ فَامْتَثِلْهَا) يعني هذه المنظومة جمعت لك نصائح ثمينة ووصايا مهمة (فَامْتَثِلْهَا حَيَاتَكَ) أي مدة حياتك، (فَهْيَ أَفْضَلُ مَا امْتَثَلْتَا)، وهو بهذا الكلام لا يثني علىٰ نظمه ولا يثني علىٰ جمعه، ليس هذا مراده، وإنما يريد أن يؤكد علىٰ المنصوح أن يهتم بهذا الكلام.

يعني عندما تقدم لشخص نصائح وتشعر أنه بحاجة لها وتعبت مثلاً في جمعها، ثم قلت: يا أخي الكريم! هذه النصائح التي قلت لك والله عظيمة جداً، ومهمة، وفيها علم عظيم، وأنت بحاجة إليها، هل أنت بهذا تمدح نفسك؟

أنت تريد أن ينتبه، تريد أن ينتبه، أن يشعر بقيمة هذا الكلام، وأن يهتم به، ويعتني به.

جَمَعْتُ لَكَ النَّصَائِحَ فَامْتَثِلْهَا ... حَيَاتَكَ فَهْيَ أَفْضَلُ مَا امْتَثَلْتَا

وَطَوَّلْتُ الْعِتَابَ وَزِدْتُ فِيهِ ... لِأَنَّكَ فِي الْبَطَالَةِ قَدْ أَطَلْتَا

في البطالة: يعني في التقصير، وعدم أخذ نفسك بمأخذ الحزم والجد والعزم.

فلأجل ذلك أن أطلت عليك في الكلام، وهذا أيضاً جميل، وهو من حُسن التودد وجميل الخطاب أن تقول لِمَنْ تناصحه في نهاية نُصحك له: أرجو المعذرة إن كنت أطلت عليك، أو أثقلت عليك في الكلام، أو أوقفتك كثيراً في هذا المكان.

فمثل هذا الكلام جميل جداً ويزيد في انشراح صدر المنصوح وإقباله علىٰ النصح الذي قدمته له.

وَطَوَّلْتُ الْعِتَابَ وَزِدْتُ فِيهِ ... لِأَنَّكَ فِي الْبَطَالَةِ قَدْ أَطَلْتَا

ثم يعود علىٰ نفسه برؤية تقصيرها وتفريطها فيقول له: (وَلاَ يَغْـرُرْكَ تَقْصِيرِي وَسَهْوِي) يعني لا تنظر إليه وما أنا فيه من تقصير وما أنا عليه من سهو، لا تغتر بذلك.

(وَخُذْ بِوَصِيَّتِي لَكَ إِنْ رَشَدْتَا) لا تنظر إليّ ولا إلىٰ تقصيري ولا إلىٰ تفريطي، خذ هذه الوصية التي جمعتها لك واعمل بها (وَلاَ يَغْرُرْكَ تَقْصِيرِي وَسَهْوِي).

وهذا -كما أشرت- أهل المنازل في الفضل والعبادة لا يزالون يهضمون أنفسهم ويرونها مقصرة ومفرطة بخلاف.. عكس هؤلاء من المقصرين تجده يرىٰ نفسه بماذا؟

بمرأىٰ المكمل للعمل المتمم له، الذي لا أحسن منه فيه.

وذكرت كلام الحسن البصري رحمه الله حول هذا المعنىٰ.

قال رحمه الله في هذا البيت:

وَقَدْ أَرْدَفْتُهَا تِسْعًا حِسَانًا وَكَانَتْ قَبْلَ ذَا مِائَةً وَسِتَّا

هذا ذكر فيه عدد أبيات هذه المنظومة وأن عددها مائة وخمسة عشر بيتًا.

فيقول: كانت مائة وستة وزدتُها تسعة أبيات فكان المجموع مائة وخمسة عشر بيتًا.

ثم ختم رحمه الله بالصلاة والسلام علىٰ النبي والصحب والآل، ونسأل الله ﷻ أن يجزي هذا الناظم علىٰ هذه المنظومة النافعة الماتعة المفيدة وأن يغفر له- لأبي إسحاق-، وأن يغفر لأبي بكر أيضًا الذي مرّ معنا ذِكْره في هذه الأبيات، وجعله الله سببًا لهذه الأبيات النافعة، فغفر الله له وللناظم، وغفر لنا أجمعين، ولوالدينا ومشايخنا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، اللهم صلِّ وسلم علىٰ عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.